القراءة الرابعة :

السالمي
« أديبـــاً ولغـــوياً »

إعداد / د. ابراهيم بن أحمد بن سليمان الكندي

حمداً لمن هدى بنوره من اتبع رضـوانه سبل السلام. وأنعم على من شاء من الأنام بـالبيان، فأنطقه ببليغ الكلام. وصـلاةً وسلاماً على خير من دعا الى رشاد، وأفصح من نطق بالضاد، سيد كل سيد ومسود ، من والد ومولـود، النبي الأواه محمد بن عبدالله، وعلى آلـه الاطهار وصحبه الأبرار وكل من آمن به واتبع النور الذي أنزل معه.

أمابعد ،

فإن تكـريم أساطين الفكـر وأعـلام الأمة ودعـاة الإصـلاح، بابـراز مـآثرهم ونتـاج قـرائحهم. ايقـاظاً للعـزائم، وبعثـاً للهمم. وأداء لبعض الـواجب يعتبر بحق مفخرة لكل من يسهم فيـه ولو بكلمـة. فكيف بمن يقوم به ويتبناه؟! والمنتدى الأدبي إذ يتبنى تلك المواقف المشرفة، ويجرد صوارم العزم. ويختط للمنتسبين اليه ذلك المنهج الواضح المعالم، إظهارا لما يكنونه للجهـابذة الأعلام من تقدير واحترام جديـر بأن يبارك خطاه كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ذلك أن الناشئة يجب أن تضيىء دربها الى التقدم بنتاج قرائح الموهوبين الذين أنار الله بصائرهم وصفى سرائرهم ونقى ضمائرهم وفجـر ينـابيع الحكمـة من قلـوبهم ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾[1]

فكل من يريـد أن يضـع لبنة في بناء مجتمع فـاضل لابد أن يستضيء بمشعل من أعمال السلف الصالح حتى يكون خير خلف لخير سلف.

---

(١) آل عمران

وقد وجه اليّ هذا الصرح الشامخ «المنتـدى الأدبي» ضمن فعالياته في هذا المجال دعوة للمشاركة ببحث بعنوان «عبدالله بن حميد السالمي أديباً ولغوياً». والله يعلم اني لست من فرسـان ذلك الميدان ولا من أرباب هذا الشأن حتى إني لا أصلح أن أنـزل طفيليـاً على مـوائد الأدب واللغـة في قـرى الأدباء واللغـويين. ومع ذلك كلـه فلسوء حظي حـالت بيني وبين اعداد البحث ظروف لا أرى الافصاح عنها في هذا المقام مناسبة. غير اني من خلال اطلالتي من نافـذة الاطلاع وقفت على فيض من غيض وقطرة من بحر في ثنايا مـؤلفات ذلك العلم الذي رسخت في كل حقل من حقول المعرفة. بل في كل بحر من بحور العلم لـه قدم راسخة، وبسقت له فيها ظلال وارفـة، وشمت ومضة تنـم عن شخصية فـذة في الأدب بمدلـوله الواسع. وقاموس لغوي تتلاطـم أمواجه فيقذف بنفيس الجواهر لمن دنا منه، ويبعث بمواطر السحب لمن نأى عنه.

فعندهـا خاطبت نفسي وأنا موقن بصـدق ما أقول عنـدما اقتربت من ذلك البحر الذي لا ساحل لـه ... إذا كان هذا العباب يتهيب الإقتراب منه المقتـدرون، أليس من السخـريـة أن يخوض غماره أمثـالي ممن خمدت فطنته ووهى عزمه، وطبق النوم أجفانه؟!!

ولولا ذمام لربوع عامـرة بالمودة يتحتم قضاؤها، ونعمة من الواجب شكـرها لما صـدرت عن لسـاني في الموضوع بنـت شفة، ولكني أتقـدم بوريقات يغلفهـا الحياء لما أودع فيها من بضاعة مزجـاة وشذرات قليلة على أكثر تقديـر ان صح عنها ذلك التعبير. أما البحث فأسأل الله أن يمن عليّ بإعداده عندمـا تكون الفرصة سانحة بمشيئـة الله وامداده فهو وليّ ذلك والقادر عليه.

« نور الدين السالمي والأدب »

إن من يطرق سمعه ذكر مؤلفات هذا العلم المحقق نور الدين السالمي ــ رحمه الله وطيب ثراه ــ يظن لأول وهلة أنه أصولي وفقيه محدث فحسب، ولكنه بمجرد ما يقلب بعض صفحات أي مؤلف من مؤلفاته ولو كان صغير الحجم يجد الخير المتدفق والنور المتألق فيحس أن القريحة التي جاءت بذلك الأسلوب الرفيع تنبىء بصدق ويقين عن موهبة أدبية لا تبارى ، وفارس في مضمار الأدب لا يجارى.

واذا كان الأديب هو المصور للأخيلة الدقيقة والمبرز للمعاني الرفيعة الرقيقة، والمحلق في آفاق النفس الإنسانية بما يبدعه من صادق القول والمتغلغل في أعماق النفس الإنسانية بابرازه المعقول في قالب المحسوس. فان فيما فاض به خاطره ـ رحمه الله ــ وجادت به قريحته أسطع برهان على أنه الأديب الألمعي.

الألمعي الذي يظن بك الظـــ ــن كــأن قد رأى وقد سمعا

وأنت قد يداخلك العجب أو يستفزك الطرب حينما تقرأ أسلوباً رفيعاً أو نظماً بديعاً لأديب بارع أو شاعر أديب في مجال له صلة وثيقة بالأدب، أو مضمار شعر في في رغب أو رهب. ولكن هل تملك نفسك وتستطيع تقييد حركة مشاعرك حينما تلمس رفعة الأسلوب ورقة الشعور، وسعة الخيال، وانسياب التعبير انسياب الماء الزلال نحو الكبد الحراء في انشاء خطبة لكتاب، أو ابداع مقدمة لمؤلف، أو تسمع له شعراً استنهاضيا حماسيا يحرك الوجدان ويلهب المشاعر، أو تعبيراً عن مسألة فقهية، أو عرض قاعدة أصولية أو اثبات لقول في مسألة اختلفت فيها الآراء أو استدلال على قول أو حشد أدلة على رجحانها.

أولاً ـ «الأسلوب النثري عند نور الدين»

أ ـ التعبير:

لا أدل على صحة الشيء من وقوعه وحصوله في الخارج، فاذا شئت أن تتبين ما يمتاز به أسلوب هذا العلم التعبيري من دقة في التعبير وتناسق في الجمل والمفردات، وشمولية ووضوح وروعة تأخذ بمجامع قلبك فاقرأ معي هذا النص:

« نحمدك اللهم يا من أطلع شمس الأصول في سماء قلوب العارفين، وأظهر بها حقائق الأدلة لإفهام الناظرين. وأبرز بها أسرار الأحكام الشرعية لفحول العلماء المجتهدين حتى أفضى بهم الحال من ضيق التقليد الى فضاء اليقين»[1]

وهذا النص الآخر: «سبحانك يا من تفرد بالتنزيه، وتعالى عن النظير والشبيه، واتصف بالكمال الذاتي. فلا مكان يحويه ولا زمان يوجد فيه وجب له الوجود والقدم واستحال عليه الفناء والعدم. قضى على جميع ما سواه بالحدوث وحكم. ننزهك تنزيه من عرف حق الربوبية واعترف بالعجز والعبودية»[2]

أليس يبهرك ما في هذين النصين من روعة الجمال وبراعة الاستهلال؟!

«وهي أن يجعل المتكلم في أول كلامه اشارة الى مقصوده وأحسنها مايكون على وجه التورية»[3]

فالنص الأول مطلع لشرح شمس الأصول «طلعة الشمس» والكتاب مؤلف في أصول الفقه الذي يبحث عن حيثية اثبات الأدلة للأحكام وثبوت الأحكام من الأدلة الشرعية وما يتصل بذلك من كيفية الاستنباط وصفات المستنبط.

---

(١) شرح طلعة الشمس / نور الدين / ج١ ص٢

(٢) روض البيان على فيض المنان في الرد على من ادعى قدم القرآن / نور الدين / مخطوطة ص١

(٣) بهجة أنوار العقول / نور الدين ج١ ص٥

وأما النص الثاني فانـه مطلع شرح مسمى «بروض البيان على فيض المنـان على من ادعى قـدم القرآن» للعـلامـة سعيد بـن حمد الراشـدي. وموضوع الكتاب: إثبات أن القرآن مخلـوق إذ ليس في الوجود الا موجد وموجـود خالق ومخلـوق، فالخالق هو الله المتصف بـالقدم وحـده وما سواه فمخلوق محدث.

وخذ هذه الكلمات التي تفيض بالنور حيث يرشد المسلمين الى حتمية أن يكون منهم دعاة الى جمع الكلمـة مؤيداً أحقية ذلك بالنتـائج المتوقعة السريعة: «والساعي في الجمع مصلح لا محالة وأقرب الطرق له أن يدعو الناس الى تـرك الألقاب المذهبيـة ويحضـهم على التسمي بالإسـلام. فان الدين عند الله الإسلام واذا أجاب النـاس الى هذه الخصلة العظيمة ذهبت عنهم العصبية المذهبيـة ولو بعـد حين. فيبقى المرء يلتمس الحق لنفسه ويكـون الحق أولاً عند آحـاد من الرجـال ثم يفشـو شيئاً فشيئـاً حتى يرجع الى الفطرة. وهي دعاية الإسلام التي بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام. وتضمحل البـدع شيئاً فشيئاً فيصير الناس اخـواناًومن ضل فانما يضل على نفسه»[1]

فهل ترى أبين من هذا الأسلـوب المتناسق الجمل ، الخالي من الحشو، الموصل الى المطلـوب. ويستمر في أسلـوبه الـرفيع معـرباً عن أمنيتـه في تحقق الوحدة والمكان الذي يجب أن يبزغ منه فجرها لا أن يغشاه حالك من ظلمـة التفـريق. قـائلاً: «وأوفق البلاد لهذه الـدعـوة مهبط الـوحي ومتردد الملائكـة ومقصد الخاص والعـام وحـرم الله الآمن. لأنه مـرجع الكل. وليس لنا مذهب الا الإسلام فمن ثم تجدنا نقبل الحق ممن جاء به وإن كان بغيضاً، ونـرد الباطل على من جاء به وان كـان حبيباً. ونعرف الرجال بالحق. فالكبير معنا من وافقه والصغير من خالفه»[2]

ولنستمع اليه وهو يبرر أفضلية علـم أصول الفقه وأشرفيته على كثير

(١) جوابات نور الدين «مخطوطة» ـ الجزء الرابع ص ١٧٥
(٢) المرجع السابق ص ١٧٦

من العلـوم بعد أن ذكـر الغايـة التي يصل اليهـا دارسه والسـاعي الى تحصيله: «وهذا المقـام مقام ليس بعده غاية لطالب الهدايـة وبما ذكرته هاهنا من فائدة أصول الفقـه يظهر لك أشرفيته على غيره وأفضليته على ما عـداه. أما الكـلام فإنه وإن كـان أفضل العلـوم بلاخـلاف، لأنه انما يبحث عن صفـات الله تعـالى. وشرف العلم انما هـو بشرف الموضـوع فأفضليتـه على سائر الفنـون انما هي أفضلية بـاعتبار مـا ذكر. وهـذا أفضليتـه بـاعتبـارات كثيرة وكثير من العلـوم كعلم العـربيـة والنحـو والصرف إنما هي طرق الى معرفة هـذا الفن . فنسبته اليها بهذا الاعتبار إنما هي كنسبـة الثمـرة الى الشجـرة لأنها انما تطلب لأجلـه كما ان الشجرة انما تغرس لأجل ثمرتها ولـربما لم يحصل منها المطلوب فتجذ من أصلها»[1]

ألا ترى قوة هـذا الأسلوب وترابط كلماته بحيث لـو حذفت كلمة من تلك الفقرة لاختل المعنى. ولولا خشية الإطالة لأوردت نصوصاً من هذا الكتاب يسحر جمالها عقول البلغاء. ومع ذلـك فهو يعرض حقائق علمية ونظريات وآراء مقـرونة بحججها، والاعتراضات عليهـا، والاجابات عن تلك الاعتراضـات بـأسلـوب جـذاب .. وإني أنصح مـن أراد المزيـد من المعرفة بقراءة هذا الكتاب لتتضح له الدرجة التي وصل اليها هذا المحقق المدقق ومكانته بين الفصحاء والبلغاء.

ب ـ الخطـــابة:

أما أسلـوب الخطابة عنده فحـدث عن جودته ولاحرج خصـوصاً إذا كان مـوضوع الخطبة «الحث على الجهـاد واتباع سبيل الرشـاد» وهذه شذرة من شذرات خطبه ألقاها في ملأ من الناس:

« ألا وإن الله قـد من عليكم بـالإجتماع بعـد التشتت، وبالألفـة بعـد التفرق، ففتح بصائركم بنور الهدى، وبصركم من العمى، وأيقظ هممكم

[1] شرح طلعة الشمس ج ١ ص ٢٤ ، ٢٥.

الى طلب العلا، وبعث عزائمكم بعد طول الثوى، فمن عليكم بهذه النعمة العظيمة. والمنن الجسيمة، وأنقذكم من الضلالة، وأخرجكم من الجهالة، فجمع على هذا الخير آراءكم، فاشكروا نعم الله عليكم، فان الشكر قيد النعم، وأوفوا بعهد الله يوف بعهدكم، وانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم»[1]

ثم جعل مسك الختام لهذه الخطبة دعوات توجه بها الى الله جملاً تفيض بالروحانية وتشع بالنور. فما أولاها بالقبول وأحراها بالاجابة. وهذه نبذة يسيرة منها: « أعز الله كلمتكم، وقوى دعوتكم، ورد اليكم نعمتكم، وأفلج حجتكم، وأكثر أموالكم، وكثر على الحق رجالكم، وصدق مقالكم، وشكر أعمالكم، ورضى آمالكم، ورتق بكم الفتوق، وأعطى بكم الحقوق، وأحياكم على سنن الصادق الصدوق، وأخمد أهل الفتن والمروق، وكان الله معكم وجعلكم معه، وكان لكم، وجعلكم له، ودفع بكم الأسوا، وداوى بكم الأدوى، وأوضح بكم سبل الهدى، وأدام الله ستركم وأعز نصركم، وقوى قلوبكم، وطهر عيوبكم، وكمل بكم الإسلام، وأوصل بكم الأرحام، وجلا بكم الظلام، شد الله أزركم، ووضع وزركم، أنار الله بكم الشرع، وأطفأ بكم البدع، سكن الله بكم الروعات، وأذهب بكم الفزعات، حقن بكم الدماء، وجلا بكم من العمى، لاأراكم الله سوء، ولا شمت بكم عدواً، حمد الله أمركم، ومد أثركم ورفع قدركم، وقوى صبركم، وشكر شكركم، وأعاذكم جور المسالك، ومحل المهالك، وأدخلنا وإياكم دار الإسلام مع الحور في تلك الخيام، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقاً»[2]

ج ـ القصـــــة:

وأما أسلوبه القصصي فلم يعتمد فيه على نسج الخيال، والحلل الفضفاضة التي كثيراً ما يلبسها المؤرخون وما يسوقونه من قصص

---

(١) العقد الثمين للشيخ السالمي ج ٤ ص ٢٦٣
(٢) المرجع السابق ص ٢٦٣، ص٢٦٤

ترويجاً وتنميقاً لها، لتكون مؤثرة مقبولة تتناسب مع الأخيلة والأمزجة، أو تلهب المشاعر، أو تؤجج العواطف. بل هـو شديد الحرص على الأمانة في النقل. والدقة في المأخذ.

وسيرته «تحفة الأعيـان في سيرة أهل عمان» أسطع برهان على النهج الذي اختطـه لنفسه في نقل الـوقائع وسرد الأخبـار بعبارات خـالية من التكلف وافية بالمراد ، محققة للهدف، بعيدة عن التعسف.

ومع ذلك فتعبيره عن الـــوقـائع التـاريخيـــة في الـذروة من الجودة والسهولـة وعذوبة الألفاظ وانسيـاق المعاني. مطابقـة لمقتضى الأحوال والمقامات.

وللجانب الحماسي لـديه حظوة فيما يتصل بالجهـاد والمعارك الدائرة بين أهل الهداية وذوي الغـواية كما يظهر ذلك جلياً لمن تتبع مـا كتبه في المعارك والوقائع الحربية.

ومما يمتاز بـه أسلوبه في السيرة المشار اليها عـدم التحيز لفريق على آخر كما انه لايلجأ الى التنقص أو التهكم، حتى ولو كـان من يريد ابراز حالـه مستوجباً لـه. فلا تلجئه العـاطفة، ولايحمله الشنـآن على مجانبة العدل. فهو يضـع كل شيء في نصـابه. فأهم شيء لديه إيصـال المعلومات الى القارىء بأمانة وصحـة نقل. وقل ما يتبع ما ينقله أو يسرده بتحليل أو تعليق إلا اذا لم يجد بـداً من ذلك بيـاناً لمشكل، أو كشفـا لمعضل، أو استنباطا لمسألة فقهية تتصل بواقع الحياة.

ولا يتسع المقام لايراد أمثلة من كتـاباته في السيرة على ما ذكرت. بل أحيل القارىء على ذلك المعين لينهل منه متى أراد.

ثانيـاً ـ ملكته الشـــعرية

إذا كان الشعـر هو الكـلام الموزون المقفى المعبر عن الأخيلة البـديعة والصور المؤثـرة البليغة، الـوثيق الصلة بـالشعور النـاجم عن شفـافية الإحساس وصفاء الضمير، فإن لنور الدين السالمي ملكة راسخة وقدرة فـائقـة على السباحـة في بحـور الشعـر، والتقاط النفـائس من مكنـون جواهـرها فمـع كونه لم يحفـل به ولم يصرف نحـوه همه وهمته. ولم يمسك بعنانه فإن له قصائد تعتبر من روائع الشعر في موضوعاتها.

والمتأمل في غور قصائده بامعان يجدهـا منساقة الى النفس في عذوبة ألفاظ، وجزالة معان انسياق العبير الى الأنوف والعذب الزلال الى القلوب الصـادئة. ان نتاجـه في هـذا المجـال من عفو البـديهة، وفيض الخاطـر. والأغراض الشعـرية التي طرقهـا في شعره هي الأغـراض الشريفة التي تتناسب مع نهضتـه بمجتمعه، وما ينشـده من استقامة، وما ينـادي به من جمع الكلمة على الحق، والانضواء تحت لـواء الهدى، فمن شعره إن لم أقل كله شعر حماسي يشف عن مضاء عزيمة، وشدة شكيمة، وصدق طوية، وسلامة قصد.

لنأخذ مثالاً على ذلك رائيته الغراء التي استهلها بقوله:

مقـام في القصـــور على قصـور　　مقـــام مثـل ربـــات الخدور
فنصبح مثلهـا ونـروح أيضـاً　　على فـــرح بـأنـــواع السرور

وهذه الرائية العذبة الألفـاظ، المنتناسبة المفردات والجمل. يظللها جو من التبرم بـالأخـلاقيات التـي لها وجود في مجتمعـه، ولـو لم تكن على نطاق واسـع، ولكن الهدف الرئيسي من انشائها استنهاض همة الأمة عن طريق توجيه اللوم اليهم ايقاظاً لعزائمهم.

لقـــد ألهتكم اللـــذات حتى　　تشبهتم بـــربـــات الخدور
لقـد أسرتكم الشهـوات حتى　　غـدوتم مثل سكـان القبـور

وإذا كان فطاحلة الشعراء وفرسان الأدب يتبارون في نظم القلائد من الجمال غزلاً ونسيباً ووصفاً وتشبيهاً. فان هذا الوحيد في عصره قد أناخت به همته العالية في ساحة ذوي السيادة السامية حيث الهمّ والهمة فى ارساء دعائم العدل، واحياء ما انطمس من معالم الهدى. ولنستمع الى أبيات من فرائد قلائده إذ يقول:

لشغلي بأهل الدهر إحدى العجائب ... وتركي طلاب العدل إحدى المصائب
فصوبت فكري أي حال يكون لي ... منـاراً بـه أسمـو لأعلى المراتب
وأي مقام فيه أغدو مجانباً ... لأهل الهوى والغي من كل لاعب
وأي خصال إن تحلى بها الفتي ... تميز فيها عن ذوات الجلابب
وأي طريق أقتفي في سلوكه ... سبيل رسول الله زين المناقب

ـ تعليق ـ انها والله اللهجة الصادقة، والعزيمة التي لاتعرف الكلل، والأفعال مصداق للأقوال. فما كان ليقول ما لايفعل.

وإذا كان الشعراء ينفقون الثمين من أوقاتهم في تحبير القوافي، وتنميق المدائح لتكون لهم مفاتيح لخزائن الملوك وذوي الرفادة. واذا كان التواحي فيما بينهم بأن يكون الأديب بمنأى عن ميادين الإقدام والترغيب في الإخلاد الى الراحة، وايثار السلامة في بحبوحة الهون. فان هذا العلم قد سلك في شعره المنهاج الذي يوصل سالكيه الى ذرى العز والشرف انطلاقاً من أن المقدر كائن لامحالة. رضي الشخص أم أبى..

والبرهان على ذلك قوله:

هون عليك فان الرزق مقسوم ... والعمر في اللوح محدود ومعلوم
فلا يزيد على ما خط منه كما ... لايدفع الجبن ما في الغيب محتوم
فبذلك الجهد في سعي تروم به ... زيادة الرزق جهل منك مذموم
وصونك النفس عن موت تصادفه ... وقد تأجل حمق فيك مرسوم
فهل تعجل عن ميقات موعده ... لقادم في الوغى والحرب مضروم

أم هل تأخـــر عنـــه لحظـــة لأخي ... جبن تخدر عنـــه وهـــو مهضـــوم
كـــــلا وربك لايجدي الفـــــرار كما ... لاينقص العمـــر اقـــدام وتصميم
ففي الشجـاعـة نيل المجـد قـاطبـة ... وفي الجبـــانـــة كل الـــذم محتـــوم
وفي الشجـاعـــة حصن لا انهدام لـه ... وفي الجبـــانـــة القـــاء وتسليم

ـ تعليق ـ وهذه الميمية نسجها على هذا المنوال وهي كما تسمع تدخل ألفاظها ومعانيها الى القلوب عبر الآذان دون حاجة الى استئذان.

مسلكه في الرثـــــاء

قلما تجد أديباً لاتجيش شاعريته بمرثية. حسرة على مفارق، من إلف موافق، أو حبيـب وامق، أو على مفضـال بفيض العطـاء دافق، أو قمة في الفضـائل والخلائق، غير أن البواعث على الـرثاء هي التي تحدد مـلامح الشاعر وأهدافه ومراميه. كما تبرهن على صدقه حيال ما يعدد من مآثر من يصوغ الرثاء فيه.

ونور الـدين ـ رحمه الله ـ تفوق مراثيـه التي جاشت بها قـريحته مـراثي كثير من قـدامى الشعـراء ومحدثيهم، بالنظـر الى نبل الغـرض وسمو الهدف اضافة الى قوة المباني وجزالة المعاني، فلا تجده في الرثاء .. يمزق جلباب الحياء. كما انـه يترفع أن ينوح نواح الثكلى ولكنه ينطلق من واقع حياة من يرثيه معرجاً على الخلائق المتأصلة فيه متخذاً له ولمن يشنف سمعه بفرائد قلائده، قدوة وعظة وعبرة ممن يحبر سيرته.

ولا أدلّ على ما أقول من مرثيتين فـريدتين في نوعهما: رثى بأولاهما الشيخ الصالح صالح بن علي بن ناصر الحارثي ومطلعها:

قضـــت أحســابنا أن لاتدينـا ... لحـكم الحـادثات وإن رزينا

وهي نونية تقع في اثنين وثلاثين بيتاً.

ورثى بـالثانيـة شيخـه المشار اليـه وبمعيتـه ابنه الهمام عبـدالله بن صـالح، وأحـد مشـائخ نور الـدين العـلامـة حمد ين سيف بن سعيـد

البوسعيدي، والشيـخ سعيد بن حمد الراشدي، ووالده حميـد بن سلوم السالمي. وهي عينية رائعة عدد أبياتها ستون بيتاً.

ومن أراد الوقوف عن كثب عن ذلك السيب المدرار فإني أحيله عليهما ليقـرأهما قراءة منصف متأمل. ولابأس أن نلتقط من نفيس تلك الـدرر ما تشنف به الآذان.

فمن أبيات النونية قوله في المطلع:

وعـزم صـادق يأبى علينـا لغير المكـرمـات وان بلينـا

وقوله:

فـلا يحسـب فتى انـا انثنينـا عن العليـا لما فيهـا لقينـا

واستمع اليه وهو يصف من يرثيه:

همام ليس يرضى غير صيـد الكمـ ـاة الصيـد بين الصـائدينـا
لـه همم تـدوس النجم تيهـاً وعـزم يبهـر المتأملينـا

واليك من العينية التي بلغت أبياتها ستين بيتاً قطوفاً من يانع جناها:

أصبر على مضـض المصـارع فـالـدهـر لـلأعمار قـاطع
هـوّن فإن العمـر في الإنسـ ـان من بعـض الـودائع
كُـفَّ المدامع أن تسيـل فمـ ـا عسـى نفع المدامـع
واعـلم بأن الـدهـر لا يصفـو لحـال منـك جـازع

ـ تعليـق : ـ ما أصدق هذا المطلع الذي يلوح مـن خلاله بارق براعة الاستهلال بشراً بين يدي غيث متتـابع ينبت الصبر فيثمر الظفر وينعش الهمم ويوقظ العـزائم ولا يتسع المقام لإيراد كل مـراثيه وسرد المنتخب منها فكلها في واقع الأمر لآلىء ودرر تبهر الناظر بعين الإنصاف.

ولنعد مـرة أخرى الى الأغراض المتعددة في شعـره بعد أن أخذنا جـولة سريعة حول المراثي:

ولم ينس ـ رحمه الله تعالى ـ أن يعـزي خلـف شيخه الصالح صالح بن علي الحارثي ولده عيسى مستنهضاً إياه ليسير على نهج أبيه . ومما قاله في ذلك هائية في اثني عشر بيتاً. استمع الى مطلعها:

خل البكـاء وإن رزيت بمثله وانهض سريعاً في طريقة عدله

كما أنشأ هائية بـدا فيها واضحاً لزوم مـا لايلزم في ثمانية وعشرين بيتاً وفي مطلعها يقول:

هو المجد فاطلبه وان عز طالبه وجـد وان ضاقت عليك مذاهبه

وحيث كان مولعاً بالتحريض على الجهاد نصرة لدين الله ، واظهاراً لما انطمس من معـالم الشريعة فـاننـا نجد في شعـره إنـاءً صافيـاً ينضح بـالعذب الـزلال الذي يحيـي القلوب الميتـة، ويبرد الأكباد الحراء. ومـا أحسن حائيته التي يقول فيها:

إن جـاء نصر الله والفتح وبطل التدليس والشطح

والحائية تقع في خمسـة وعشرين بيتاً. وهي في الواقع قلادة يـزهو بها جبين الـدهـر. وهـو حينما تتألـب عليـه المصيبـات وتنيخ بفنـائه رازم الرزايـا، لا تفت في عضده ولا توهى كاهلـه بل تزيده صلابـة في العزم وقوة في الشكيمة تشهد لذلك تائيته الرائعة التي استهلها بقوله:

أبـت الا المـروات الأبيـة نفـوس لاتقـر على دنيّـه
علت شرفـاً وفلت كـل خطب بأحسـاب وهمـات عليّـه
وقـابلت المصـائب بـاحتسـاب مخفف صبرهـا ثقل الـرزيّـه
مصـائب بعضهـا في أثـر بعض فلـولا الصبر لم تبـق عليّـه
ولكن صـانعـت مني محيـا تلـوح بـه البشـاشـات البهيـه

وهذه القصيـدة من غرر قصـائده وتقع في أربعة وعشريـن بيتاً واذا كان كثير من الأدباء والحكماء يتبـارون في صوغ المقصورات تعبيراً عن مشاعرهم أو ابـرازاً لمآثرهم ومفاخرهم. أو مآثر ومفـاخر من يجلونهم

ويكيلون الثناء لهم.. فان نور الدين لم يفته أن يجاريهم بمقصورة. غير أن مقصورته جاءت معبرة عما يختلج في مشاعره ويلهج به لسانه على نحو المنهاج الذي اختطه لنفسه ودعا اليه حيث يقول في مطلعها:

خل عن ذكرى حبيب واللوى ... واطلب المجد بما الكف حوى
وابذل المجهود في نيل العلى ... والفتى وإن لم ينلها في هوا

والمقصورة تقع في خمسة وعشرين بيتاً، وكلها على هذا المنوال، ثم اتبعها بمقصورة أخرى من خمسة وعشرين بيتاً. ومن أبياتها:

أشجع الناس من الحرب اشتهى ... وإذا وافت قرناً ما سهى

ولو تتبعنا أسلوبه في الأدب عامة نثراً ونظماً لوجدناه من أرقى الأساليب وأدقها وأبينها. وقد استرعى انتباهي وأنا أتنزه في رياض شعره هذا التشبيه الذي لم أجده لغيره. الذي ضمنه أبياتاً توقظ المشاعر الخامدة فتهبها الحياة من قصيدة بائية يقول فيها:

ما قام عز في البرية ... والرعاع له سبب
كالطود ليس يطيقه ... بيت بسقف من خشب
فابن العلا بجبال عز ... لايزعزها الرهب
وارم العدا بسهام من ... ترمى به حالاً تصب
بأماجد شم لهم ... في الناس سابقة الحسب

تأمل معي هذه الإستعارات مع ذلك التشبيه: حيث شبه العز الذي هو رمز الدولة بطود عظيم شامخ لايمكن أن يستقر الا على أرض صلبة فلا يحمله بيت سقوفه من خشب مهما بلغت من الصلابة والضخامة. وما أروع استعارة الجبال المضافة الى العز للرجال الأماجد ذوي الحسب الرفيع.

« مختـــاراته الشعرية »

ليس الشعر الـذي تناولنا قطوفـاً منه هو وحده المرآة الصـافية التي تعكس لنا رسوخ قدم نـور الدين ـ رحمه الله ـ في الأدب، بل لهذا العلم جوانب أخرى نستطيع من خـلالها أن نتبين تمكنه في الأدب وسموه الى ذراه، وتبوأه فيه المكانة المرموقة بين سائر أقراته. منها علي سبيل المثال لا الحصر مـا وقفت عليـه من خـلال قـراءتي لمجموعـة منـاظيمـه من مختاراته الشعـرية لغيره. فقد أدرج كاتبها قصـائد من عيون الشعر في تلك المجموعـة. ولما سألت حفيده الشيخ سليمان عن سبـب ذلك أكد لي نقلاً عن والـده أن الشيخ نور الـدين ـ رحمه الله ـ كـان كثيراً ما يحب الاستماع الى تلك القصائد المختارة لديه. وكان يحث على حفظها.

ومن بينها: المرثيـة الرائعة التي رثى بها أبا الحصين الإمـام عبد الله ابن يحيى طالب الحق وقرنـاءه واخوانه من رجال الـدعوة كمرداس بن حدير وأبي حمزة الشاري ومطلع هذه المرثية:

هبـــت قبـــيل تبـــلج الفجـــر هنـــد تقـــول ودمعهـــا يجري
ان أبصرت عيني مـــــدامعهـــا ينهل وأكفهـــــا على النحـــــر
انى اعتراك وكنـت عهـــــدي لا سرب الـــدمـــوع وكنت ذا صبر
أقـــذى بعينك مـــا يفـــارقهـــا أم عـــائر أم مـــا لها تـــدري
أم ذكـر اخـوان فجـــعت بهـــم ســـلكوا ســـبيلهم على خبـــر[1]

إن اختياره لهذه الرائية واستحسانه لها يوضحان مدى ذوقه الرفيع واحساسه المرهف وهي جديرة بأن يهتم بها الأديب والداعية.

ومن مختاراته ـــ رحمه الله ـ قصيدة عمرو بن العـاص اللامية التي يخاطب بها معاوية مذكراً له بما له من فضل عليه:

معـاويـة الفضـــل لاتنســـى لي وعن منهـــج الحـــق لاتعـــدلي
نســـيت احتيـــالي في جـــلق على أهلهـا يـوم لبـس الحلـــي

(١) أنظر القصيدة بطولها في الأغاني. لأبي الفرج الأصفهاني.

ومن تلك المختارات أيضاً رائية ابن الجهم التي منها:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
أزلن رسيس القلب عن مستقره وألهبن ما بين الجوانح والصدر[1]

ومما كان يستحسنه من شعر سليمان بن سليمان النبهاني رائيته التي أبدع فيها والتي استهلها بقوله:

اللدار من أكناف قو فعرعر فخبت النقا بطن الصفا فالمشقر
كأن سطوراً معجمات رُسومها اذا لحن أو هلهال برد محبر[2]

وقد قال الشيخ ـ رحمه الله ـ عن هذه الرائية المليئة بالألفاظ الجزلة والمطرزة بالمعاني الرائعة الرفيعة انها تضاهي المعلقات:

ولنعد بالذاكرة الى ما كان يتمتع به نور الدين ـــ رحمه الله ـ من موهبة في النظم لا تبارى وماله فيه من باع طويل يعجز عنه الفحول من الشعراء.

فأقوى برهان وأدله على ما أقول كتابه «جوهر النظام» الذي حبك فيه نظمه البديع الرائع مع أرجوزة الصائغي بحيث لايستطيع التفرقة بين أبيات الأصل وأبيات الجوهر إلا من قرأ الأرجوزة وحدها مرة بعد أخرى.

ومن أبدع ما نظمه نور الدين كتابه «مدارج الكمال» ، الذي ضمنه مختصر الخصال للإمام ابراهيم بن قيس الحضرمي ـ رحمه الله ـ الذي بلغت أبياته ألفي بيت في أروع أسلوب وأرفعه. ولا داعي لايراد شواهد

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما قد حدثوك فما رأى كمن سمعا

وأكرم بأرجوزة أنوار العقول التي أبرز فيها معالم علم التوحيد مبتدئا اياها بقوله:

---

(١) أنظر القصيدة بطولها في الأغاني. أبي فرج الأصفهاني. ج
(٢) ديوان سليمان بن سليمان النيهاني.

الحمـــد لله الـــذي قـــد أشرقـــا شـمس الأصـول في نهـى ذوي التـقى

ومختتماً لها بقوله:

تمت بحمـــد الله أنـــوار العقـــول حـــاويـــة أهـم شيء من الأصـــول
عـــاريـــة مـن وصمـــة الإخـــلال ســـالكـــة طـــريقـــة الكـــمال
أهـــديتهـا صرفـــاً لكـــل طـــالب تصـــونـــه من كل قـــول كـــاذب

كما قرضها بهذه الأبيات:

هـــذه الأنـــوار لا نجم زهـــر لا ولا اشـــراق شـــمس أو قمـــر
فلهـــا ألبـــاب أربـــاب العلى مطلـع زانت بـــه تلـك الفكـــر
قـــربت في فنهـــا مـــا قـــد نأى وحـــوت كل مهـــم معتبـــر
ليت أشيـــاخي الألى قـــد سلفـــوا شهـــدوا وضع مبـــانيهـا الغـــرر
ورأوا تنقيحهـــا في جمعهـــا وانتحـــالي لمعـــانيهـــا الـــدرر
فلهـــم فيهـــا مجـــال واســـع ولها عنـــدهم أعلى قـــدر

ما أروع هذه الأبيات التي تسيل رقة وعذوبـة ولا بدع فان شاعريته مرآة تعكس تمكنه في الأدب وبلوغ الذروة فيه.

وأعجب من أنوار العقـول التي أبرزت معـالم علم التوحيد منظـومته شمس الأصول وهي ألفية زخرت بقواعد علم الأصول في أسمى معانيها وأعلى مبانيها في منهجية متميزة بعرض تلك القواعد على الأصول عرضاً أدبياً يحبب علم الأصـول الى النفس مع كونه صعب المنـال ولكن قلائد الياقـوت والمرجان التي أشرق بها جيد هـذا الفن جعلته غـاية من اليسر والسهولة ولست بصدد دراسة وافيـة لأسلوبه الأدبي الفائق الرفيع في نثـره ونظمه فهـذه الوقفـات ما هي الا اشـارات عابـرة وهي بضاعـة مزجاة.

« نور الدين السالمي واللغة »

إذا كان المتمكن في اللغة الغواص في بحارها والملتقط لنفيس دررها في مكامنها والمبرز في اختيار مفرداتها وجملها في مختلف فنونها وشتى طرقها هو الذي يطلق عليه اسم اللغوي ويوصف بأنه إمام في هذه اللغة حتى ولو لم يؤلف معجماً خاصاً به فان الشيخ نور الدين ـ رحمه الله ـ أولى من يقال عنه انه إمام في اللغة، فأسلوبه التعبيري في كلامه المنثور في مؤلفاته العديدة يدلك على رسوخ قدمه في لغة العرب، فلا تجد في فقرة من فقرات مؤلفاته كلاماً حوشياً ولا غريباً ولا متنافراً، فكلما قرأت فصلاً من كتاب شدك ذلك الفصل إلى أن تكمل قراءة الباب وكلما أكملت باباً توقدت فيك الهمة إلى أن تتنزه في رياض الكتاب وما ذلك الا للبلاغة الباهرة والفصاحة الظاهرة والتراكيب اللغوية السالمة من العيوب ولايتسع المقام لدراسة مفصلة وايراد مقاطع من كلامه في مؤلفاته الا نزرا يسيراً ولكي أحث القارىء أن يفتح بصره وبصيرته على مؤلفين لها صلة بالموضوع الأول كتاب «**شرح بلوغ الأمل في المفردات والجمل**» وهو في أربعة أبواب.

وهأنذا أورد مقتطفات من مقدمة الكتاب مصداقاً لما أشرت اليه من موهبته الفذة في اللغة العربية.

ولعل من يقرأ المقدمة تشده قراءتها إلى التنزه في رياض الكتاب ليقتطف من أزهارها ما ينعش فكره.

يقول : (أما بعد : فهذه منظومة في تفصيل الجمل منّ بها عليّ ربي عز وجل سميتها بعد تمامها ببلوغ الأمل ضمنتها الاعراب عن قواعد الاعراب وهو كتاب جليل في هذا الباب خال من الحشو والاطناب ومن التطويل والاسهاب لابن هشام صاحب المغني وقال: نظمت منه حال الابتداء ما وسعه ذهني وقد شرحته في ذلك الحال شرحاً على قدر الحال

وذلك سنة خمس وثلاثمائة وألف ثم لاحت مني التفاتة الى ذلك المنظوم وإلى شرحه المعلوم في سنة خمس عشرة وثلاثمائة وألف فقرىء عليّ ذلك النظم مع شرحه المذكور فرأيت ما فيه من قصور عن مرام أصله المشهور فتداركته بزيادة أبياته كان ذلك النظم منها خالياً وكسوته هذا المزيد مع الخطبة حللاً كان ذلك الشرح منها عارياً ثم أبقيت شرح الأبيات الأول على مافيها من خلل ليكون ذلك على عجزي دليلاً وليعلم المبتدىء أن العلم انما ينمو قليلاً قليلاً وليستبين الفرق بين درجتي المبتدىء والمنتهي والكل بفضل الله يبتدىء وبتوفيقه ينتهي وهذا أول النظم المشار اليه والكل منه تعالى واليه).

ولعلك تدرك معي أيها القارىء لهذا النص مغزى الإشارة بقوله: «وليستبين الفرق بين درجتي المبتدي والمنتهي» والمتتبع لفصول هذا الكتاب تعبيراً وتأصيلاً واجمالاً وتفصيلاً يجد مصداق هذه الإشارة في التحقيق والترجيح اللذين أبداهما في بعض المسائل وميض ينبىء عن غيث منسجم سيال بالمعرفة:

وهذا الشرح كما يبدو واضحاً كتبه المؤلف بعد فترة من نظم الأرجوزة المشروحة لأنه أشار بل صرح لأن الأرجوزة هي أول مؤلف له يتحف به المكتبة العلمية: وهو يقول:

سميت نظمه بلوغ الأمل	إذ بالنظام قد بلغت أملي
ولم أصنف قبله مؤلفا	قط فيعفو الله عن عبد هفا
اذ ليس يخلو أبداً من زلة	مؤلف وإن علا في الرتبة
فكيف يخلو من عثار مبتدي	وإن يكن بالسابقين مقتدي
إذ فهمه ينبو عن الوصول	لمدرك الفهم من الفحول

والكتاب وان كان صغير الحجم فهو عميم النفع فمتنه ميسر للحفظ وشرحه يكسوه حللاً سندسية تروق للناظر وتبهج الخاطر ولا أريد أن

أتوسع بـايراد نبذ من ذلـك الشرح الفريد من نـوعه ايضاحـاً وتنسيقاً فحسب القارىء أن يقلب صفحات الكتاب ليجد البرهان على ما أقول.

وأمـا المؤلف الثـاني فهو كتـاب «**المواهب السنيـة على الـدرة البهيـة**» شرح فيه الدرة البهيـة لشرف الدين بن يحيى العمريطي نظم متن الأجـروميـة لأبي عبـدالله محمـد بـن محمـد بن داود الصنهـاجي المعروف بابن أجرومي أي الفقير الصوفي.

وشرح نور الدين ـ رحمـــه الله ـ شرح مختصر في جزأين لطيفين غير انه دليل واضح على البراعة التي يتمتع بها مؤلفه كما أن أسلوبه المتميز بالـوضوح والشموليـة مع كونه مختصراً دليل آخـر على حسن تصرفه وسعة علمه ولابأس بذكر مقتطفات من مقدمات الشرح ليستشف المطلع عليها ما وراءها من خبايا تضم أنفس الدرر.

يقول المؤلف: « نحمدك يامن رفع من نحى نحوه بضم المواهب اليهم ونصب دلائل معرفته بـالفتح المبين لديهم فانخفضوا لسلطانـه بالتذلل والانكسار وانجـزموا في خدمتـه بالسكينة والـوقار ونصلي ونسلم على أفصح نـاطق وأفضل صـادق سيـد الأولين والآخـرين وخـاتم النبيين والمرسلين وعلى آلـه وصحبـــه وأصحـابـه الحائزين مبتـــدآت الأمـور ومصـادرهـا والحارزين أفـاضل المسـاعي وأفـاخـرهـا وعلى تـابعيهم المؤكـدين لنعوتهم بأحسن ثنـاء العاطفين بسبق الاقتـداء ما تحرك بـه ساكن وما سكن متحرك».

ان هذه الشـذرات التي يتزين بها تاج الكتـاب كأنها فهارس مبرمجة لأهم أبواب النحو وفصـوله صاغها المؤلف فأودعهـا تلك الجمل القليلة العدد الغزيرة المدد.

أما عن طـول باعه في التدقيق والتحقيـق فينبىء عنه ما بثه في ثنـايا مؤلفـاته من مسائل نـاقشها وأبدى رأيه فيهـا فكان من فرســان حلبة البيان ينقـد ويرجـح ويستدل ويصحح. وتبـدو موهبتـه اللغويـة الفذة واضحة جلية عندما ينبري لشرح مبهم وفتح مستغلق أو ايضاح مشكل

بأسلوب لايمل وايضاح لايحتاج المطلع على ما يراد شرحه إلى البحث عنه في مؤلف آخر.

وكتابه الذي سماه «**روض البيان على فيض المنان في الرد على من ادعى قدم القرآن**» للعلامة سعيد بن حمد الراشدي المعاصر له الذي حبر فيه بعض مراثيه أبرز دليل على ما أقول، وهذا نص من الكتاب أضعه بين يدي القارىء وهو واحد من عشرات النصوص الحافلة بالمباحث اللغوية واللطائف اللدنية . يقول ـ رحمه الله ـ شارحا لهذا البيت:

ورميتهم عن قوس بغي بالذي ألبسته من خالص البهتان

(فرمى بمعنى قذف على حد قوله تعالى ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ أي يقذفونهن، مأخوذ من رمي الوتر عن القوس.

والقوس يذكر ويؤنث آلة الرمي في الزمان القديم، وسمي قوساً لانحنائه.

والبغي الظلم والتعدي واضافة القوس اليه من اضافة المشبه به الى المشبه على حد قول الشاعر:

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل عن لجين الماء

والوجه الجامع في تشبيه البغي بالقوس هو أن البغي تصدر عنه الأشياء المفسدة لبنية الحيوان، وقرن القوس بعن لأن العرب تقول: رميت عن القوس ورميت على القوس. ولاتقول : رميت بالقوس الا اذا أرادوا القاء نفس القوس من اليد. وفي قرنه بعن اشعار بأنهم نحوا السهم عنه وفي قرنه بعلى اشعار بأن السهم كان موضوع فوقه)[1]

فبعد هذا البيان المجلي للمفردات التي وردت في البيت أيحتاج من قرأ هذا النص للبحث عنها في معاجم اللغة.

وليس التبيان مقتصراً على معاني المفردات ولكنه برز لما فيه من لطائف بلاغية كما فى تشبيه البغى بالقوس الحامل من إضافة المشبه

---

(١) مخطوطة روض البيان على فيض المنان ـ مكتبة السالمي.

به الى المشبه ، وذكر وجه الشبه الجامع بينهما ، وهكذا نجد العشرات من النصوص التى شرح بها .هذه النونيه.

وأعذب ما في تحايله اللغوي التوجيهات والتعليلات لوضع المفردات في مواضعها من الجمل والاطلاقات والتسميات فلا يغادر اطلاق تسمية على شيء تحتاج الى بيان مناسبة إلا أعطاها حظها من التعليل والإيضاح ولاسيما لدى التشبيهات والاستعارات وعلاقات المجاز لنأخذ مثالا واحداً من بين عشرات الأمثلة هذا النص الذي شرح به هذا البيت:

متعسفاً بيداء جهل راكباً عشواءة تهوي بغير عنان

قال ــ رحمه الله ـ : «متعسفاً حال من التاء في قوله «ورمنيهم» والتعسف هو فعل الشيء من غير رؤية ومنه تعسف الطريق اذا سلكها من غير قصد.

والبيداء المكان المنقطع الذي لاماء فيه، وسمي بذلك لأنه يبيد السالك فيه أي يهلكه، ويسمى أيضاً مفازة من باب تسمية الشيء بضده تفاؤلاً بالفوز من أخطارها كتسمية اللديغ سليماً تفاؤلاً بسلامته.

شبه الجهل بالبيداء بجامع أن كلا منهما يهلك صاحبه بالأخطار المجتمعة فيه وأضاف المشبه به وهو البيداء الى المشبه وهو الجهل ليحصل له تنفير السامع من ارتكاب الجهل لأن تلك الإضافة كأنها تشعر أن الجهل هو تلك البيداء لاغيرها فهو أبلغ من قولنا «زيد أسد» لأن اضافة المشبه به الى المشبه توهم أن للمضاف أنواعاً أحدها هذا النوع المضاف الى هذا المخصوص فكأن البيداء في كلام الناظم متنوعة الى بيداء جهل وبيداء غيره فخصصها باضافتها الى الجهل فحصل المقصود»[1]

ثم يختم شرح هذا البيت بعد أن أوضح كل الإيضاح ما احتاج إلى بيان من مفردات وجمل بقوله:

« شبه المصنف حالة هذا القاذف لأهل الحق بحالة رجل لاتمييز له راكباً على فرس لا بصر لها ولا لجام يمنعها تنقض به في بيداء ذات

(١) مخطوطة روض البيان على فيض المنان مكتبة السالمي.

مهاو مهلكة لسالكها. والجامع بين المشبه به والمشبه هيئة منتزعة من عدة أمور. فوجه التشبيه على حد قوله:

وقد لاح بالفجر الثريا كما ترى كعنقود ملاّحية حين نورا [1]

إن سحر البيان تلوح بروقه في هذا النص وأمثاله فلا يملك الفكر الذي يجول فيها الا أن يسلم لمنشئها انه إمام في اللغة إمام في البيان. وشرح هذا الكتاب الفريد من نوعه نسج على هذا المنوال مع غزارته في موضوعه «الرد على من ادعى قدم القرآن» فليس ما فيه من التحليلات اللغوية واللطائف البيانية الا حلل بهية يزهو بها.

أما عن التحقيق واقامة الحجج فيما يتطرق اليه من مباحث لغوية التي لها صلة مباشرة بعلم الأصول فانك تجد ذلك مفصلاً في أبواب كتابه «طلعة الشمس» الذي شرح به شمس الأصول».

وعلى سبيل المثال ما جادت به قريحته في مبحث المشترك اللفظي والمعنوي من ترجيح وتصحيح بعد عرض الأدلة والاجابات عليها، وقد يبين بما لاغبار عليه ان الخلاف بين المختلفين في وجوده ومحله انما هو خلاف معنوي لا خلاف لفظي[2].

وعندما نقل ما قاله أئمة اللغة وأئمة الأصول في استعمال «من» و «ما» لذوات العقلاء وغيرهم أو صفات العقلاء استخلص ما حاصله أن دلالة «من» على صفات من يعقل انما هي دلالة مجازية ، ودلالة «ما» على ذلك دلالة وضعية حقيقية، وذلك أن «من» قد تستعمل بمعنى «ما» مجازاً كما في قوله تعالى ﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾[3] وقد تستعمل «ما» بمعنى «من» مجازاً أيضاً على قول كما في قوله تعالى ﴿والسماء وما بناها﴾[4] وقوله تعالى ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾[5]

وعندما سرد أحكام المجاز وتطرق الى الحكم الذي هو الأخذ بالمجاز

---

(١) مخطوطة روض البيان على فيض المنان مكتبة السالمي.
(٢) طلعة الشمس ج ١ ص ١٤٠ ـ ١٤٢/وزارة التراث القومي والثقافة.
(٣) سورة النور..
(٤) سورة الشمس.
(٥) سورة الشمس.

وترك الحقيقة لمقتضى يدعو اليه فيما اذا أراد اللفظ بين الحقيقة والمجاز وكان المجاز أظهر اختار رجحانية المجاز على الحقيقة فهو يقول بعد ذكر الخلاف وأدلة كل فريق «وأقول: إن رجحانية المجاز بالقرينة الدالة على ارادته ولو لم تكن مانعة من ارادة الحقيقة ظاهرة فانه وان كانت الحقيقة هي الأصل فقد يترك الأصل بدليل»[١]

فأنت ترى أن اختياره لم يكن اعتباطا وانما كان تبعاً للدليل الأقوى ولايصل الى مثل هذه الاختيارات في المباحث اللغوية ولاسيما استعمالات الألفاظ في حقائقها ومجازاتها إلا ذو باع طويل في مجالات اللغة.

وعند كلامه على «أو» وذكر معانيها واستعمالاتها أوضح بجلاء أن «أو» انما هي موضوعة لأحد الشيئين المتوسطة بينهما وليست موضوعة في الحقيقة للشك أو التشكيك أو الإبهام أو الإضراب أو غير ذلك من المعاني التي ذكر أئمة اللغة أن «أو» تفيدها وضعاً. بل جعل مرد تلك الأحوال الى القرائن باعتبارها ثمرات لاستعمالات اقتضتها قرائن الأحوال لها أن «أو» موضوعة في الأصل لتلك المعاني.[٢]

ولم يكن كلامه في معاني «أو» واستعمالاتها سطحياً دون أن يعرج على ما ينطوي عليه بعض تلك الاستعمالات من لطائف وأسرار يظهر ذلك جلياً عند كلامه على عموم «أو» بعد النهي كما في قوله تعالى ﴿ولاتطع منهم آثماً أو كفوراً﴾[٣] في قوله «والسر في افادتها العموم ههنا انها لأحد من غير تعيين وانتفاء الواحد المبهم لايتصور الا بانتفاء المجموع فقوله تعالى ﴿ولاتطع منهم آثماً أو كفوراً﴾ معناه لاتطع أحدا منهم وهو نكرة في سياق النفي فيعم»[٤]

هذا وما أوردته في هذه الصفحات القليلة إنما هو غيض من فيض وقطرة من بحر، وليس مغنيا ولا مستقصياً، ولكنها اشارات تستشف منها شخصيته الأدبية واللغوية، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) طلعة الشمس ج١ ص ٢١٤ ، ٢١٥
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٣
(٣) سورة الانسان
(٤) طلعة الشمس ج ١ ص ٢٣٤